

أمثال سورة النور

لا شك أن دراسة تشبيهات سورة من سور القرآن ، دراسة متأنية ، جديدة بأن تكشف الوشيجة الجامعة بين هذه التشبيهات ، لأنها ما دامت قد جرت في سورة واحدة ، ذات سياق واحد ، فلا بد أن تكون فيها جامعة تجمعها ، وهذه الجامعة قد تخفى وتدق ولكنها دقيقة ورائعة كهذه الطباع الخفية الحية التي تراها تجري في أبناء العشيرة الواحدة ، أو كهذه السيماء والملاحم الدقيقة التي تراها في القوم يرجعون إلى أب واحد ، لأن كل رموز السورة وصيغها وصورها ترجع إلى ما يشبه أن يكون أباً واحداً هو المحور الذي تدور حوله ، ولا بد أن يكون في كل هذه الصيغ وهذه الرموز وهذه الصور نفس واحد يجمعها ويؤلف بينها ، ويجعلها «عائلة» واحدة ذات سيماء وملاحم متقاربة ، والبحث الواعي الفطن هو الذي يقع على هذا ، وهو قائم أيضاً في القصيدة كما هو قائم في الديوان ، وقائم في البقاع ، أعني في البيئة المكانية للأدب وكذلك في البيئة الزمانية والحضارية ... إلى آخر هذا الأمر الذي لم نعطه إلى الآن حقه من العناية ، ومن الواجب أن نخصه بالدرس والاستنباط ، وأن نمنحه من الجهد والدقة والروح العلمية ما يجعل نتائجه أقرب إلى الإصابة والسداد ، وأبعد عن شوائب التعميم والتهويم المجازي الذي جرى في كثير من الدراسات البلاغية والنقدية وأسقط كثيراً من نتائجها .

وهذه الدراسة لا تستطيع أن تصل إلى غاية المراد ، أو إلى ما يقارب هذه الغاية ، وإنما تسعى في جد ودأب وهي مقتنعة بأن اقتحام المخاطرة والسير في الطرق غير المعبدة باب عظيم النفع ، لأن خطأ السابق فيه يهدي إلى صواب اللاحق ، ولولا تقبلنا لأن نخطئ ما وضعنا أيدينا على صواب ، وإني لأرضى أن أخطئ مائة مرة وأنا أبحث عن صواب واحد بشرط أن يكون ممماً لم يدرك بعد .

جاء التشبيه في آيات ثلاث في سورة النور بدأ بقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ (النور: ٣٥) .

والتشبيه الثاني ، والثالث جاء متلاحقين يكشفان حقيقة واحدة وهي أعمال الذين كفروا ، وقد جاء بعد المثل الأول بثلاث آيات قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ تَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ تَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فُوقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤٠﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرُهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ (النور: ٣٩، ٤٠) .

وهذه التشبيهات مبسطة ومتنوعة يجد النظر فيها متقلبا ولهذا جعلناها موضوع هذا المبحث ، مع أن السورة فيها تشبيهات أخرى ليست على هذا الحد من السعة والغزارة ، وإنما هو ربط أمر بأمر ربطا سريعا مثل قوله سبحانه : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ (النور: ٦٣) .

ومثل قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَعِذُوا كَمَا أَسْتَعِذْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ ﴾ (النور: ٥٩) .. وفيها تشبيهان ..

ومعرفة معنى هذه الألفاظ والصيغ الجارية في هذه التشبيهات متوقف على معرفة السياق الذي جرت فيه ، لأن السياق هو الجذر الذي أمدها بالحياة والأسرار ، وهو الأرومة والمعدن الذي إليه يرد الأمر . والسياق هو موضوع سورة النور وهي من السور القرآنية التي يظهر فيها وحدة الموضوع ظهورا لا يلتبس لأنها تدور من أولها إلى آخرها حول تنظيم وتقنين الآداب الواجب توافرها في علاقات الرجال بالنساء ، وإلى أي مدى تجب مراعاة الحدود التي

حددها الشريعة حتى يظل تسلسل الوجود الإنساني الممثل لخلافة الله في الأرض ، والنابع من هذين الجنسين نابغاً من منبع الطُّهر بعيداً عن الريبة واللِّبس ، ويظل الإنسان من بين الخليقة كلها مكرماً بنسبه ومعرفة آبائه الذين ينتهي إليهم : ﴿ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ (الأحزاب: ٥) .

وهذا الجانب من حياة الجماعة بالغ الدقة والحذر ومظنة الظنون والريب ، وقد تناولته السورة بشكل ظاهر وحاسم وحددت حدوده ، وأحلت حلاله ، وحرمت حرامه ، وقد بدأت السورة بذروة المأساة حين تنهدم الحدود في هذا الأمر فذكرت أم خبائث هذا الشأن ووضعت حدّها بصرامة وبسرعة عجيبة .. تأمل : ﴿ أَلَزَّيِّنَةُ وَالزَّانِي فَاجِدُوا ﴾ (النور: ٢) .

وربطت القسوة على الخارج عن حدود الله بالإيمان بالله ، حتى لا يكون هنا مجال للمشاعر الكاذبة الناعمة ، وهذا رمي في وجوه حماة الخنا في المجتمع الإسلامي والذين يصفون حماة الفضائل بالغلظة والقسوة ومجافاة التحضر ، ثم تناولت السورة ما يلي هذه الجريمة الأم في سلسلة الآداب التي شرعتها وهو وضع الناس ألسنتهم في أعراض بعضهم ، وجعلت السورة الشريفة رمي الأعراض بهذه الجريمة من غير بينة في حجم فعلها ، فالزنا حده مائة والقذف حده ثمانون ، وكررت السورة خسيصة الرمي هذه في مواضع ثلاثة وبصيغة واحدة لتثبت بشاعتها : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ﴾ (النور: ٤) ، ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ (النور: ٦) ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ ﴾ (النور: ٢٣) ، وجعلت ذلك الخوض واللغو رمياً لأنه يصيب مقاتل الأعراض كما تصيب السهام مقاتل الصيد ، ثم لمحت السورة لمحاً رائعاً بذكر حديث الإفك في هذا السياق ، هذا اللحم هو بيان أن السنة أهل اللغو قد تصيب أعراضاً طهرها كأنه من طهر السماء الذي لم تدرسه الأرض بأثامها ، ولمح آخر هو أن وضع الألسنة في أعراض الناس باب فيه إغراء وتكثر فيه غفلة أهل التقوى فتقع فيه ألسنتهم غافلين عن مقتضيات المعقول في هذا الشأن ، تأمل

قوله تعالى يخاطب الجيل الذي نزل فيه القرآن لما وضع الناس ألسنتهم في عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، قال تعالى : ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ (النور: ١٢) ، ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا ﴾ (النور: ١٦) ، ثم مضى الحديث في هذه السلسلة إلى شيء آخر هو آداب الاستئذان حتى لا تقع العيون على عورات الناس ، ثم غض البصر وطلب العفاف بالنكاح ، فإن لم يكن في الوسع فالصبر والاستعفاف والاستعصام حتى يعينهم الله من فضله .

ثم جاءت آية التشبيه الأولى : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾

(النور: ٣٥) .

وقد فصلت آية كريمة بين التشبيه وبين هذه الحدود وهذا التشريع ، وكانت بمثابة تلخيص لكل الذي مضى ، هذه الآية هي قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (النور: ٣٤) ، وقد ذكر المفسرون أن الآيات البيّنات هي هذه الحدود ، والموعظة قصة عائشة رضي الله عنها وقوله سبحانه في شأنها : ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ ﴾ (النور: ١٧) .

وكان وصف هذه الحدود بأنها آيات - أي علامات ظاهرة على طريق السلوك الإنساني - مقدمة لوصف شرع الله ونظامه ، وأنه نور السموات والأرض - أي موضح لمعالم الحياة الإنسانية شارع لها طريقها ومنهجها شرعاً لا يلتبس بها ، وقد قال عليّ كرم الله وجهه في بيان معنى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (النور: ٣٥) : أي نشر فيها الحق وبثه فأضاءت بنوره أو نور قلوب أهلها به ، فالنور المضروب له المثل بالمشكاة ... إلى آخره ، وصف لشرع الله وحدوده وحلاله وحرامه ، وقد جاء النور في القرآن مثلاً لهذا ، قال تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ ﴾ (الصف: ٨) وإتمام النور هو تثبيت هذه العقيدة في نفوس الصالحين من عباده تثبيتاً يكونون به حماة لها حراساً على حياضها .

والمثل الذي هو مثل لشرع الله في هذا الشأن الذي هو نظام علاقات الرجال بالنساء في المجتمع الإسلامي جاء هكذا: ﴿ كَمِشْكُورٍ ﴾ : أي كُورَة ضيقة ليست مثل النافذة ، وهذا الضيق يجعل نورها أكثر توهجاً ، والمشكاة : ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ ، و﴿ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ﴾ ، و﴿ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ ، تأمل المتابعة والتداخل المؤذن بغياة التوهج وفرط النور ، وأن هذا المثل هو مثل شرع الله ، وأن ضوابط الشرع وحدوده تنشر الحق والعدل والمرحمة والنور حتى تصير حياة الناس مغمورة بفيض النور الذي ترى وكأن النور هنا طبقات ودوائر تدخل كل واحدة في التي تليها ثم هو نبع لا يغيض يستمد توهجه من ﴿ شَجَرَةٍ مُّبْرَكَةٍ ﴾ (النور: ٣٥) ، وأنه بهذا التداخل وهذا المدد المتدفق صالح لأن يمد حياة الإنسان طبقة بعد طبقة وطوراً بعد طور مهما اتسعت وتداخلت وتعقدت وضلَّ بعضها في بعض ، وكأن هذا التداخل في وصف النور فيه لمح إلى أنها بسخائها وتداخلها هي مشكاة لحياة الإنسان في أطوارها وبساطتها وتعقيدها ، ثم إذا التفت إلى السياق المحدد للسورة ، وهو تنظيم علاقات الرجال بالنساء في دنيا المعاش المتزاحمة بالمناكب ، رأيت حدود الله في هذا الشأن هي الضمان الأكيد لبقاء هذا الجانب الدقيق في بؤرة الضوء والطهر والبعد عن الريبة ، وهذه العلاقات حية ومعاشة في كل ساعة ، ولذلك كانت عرضة للتغيير والتعديل والتحوير ، وشرع الله إنما وضع لها ثوابت وحدوداً لا تحول هذه الثوابت والحدود بين هذه العلاقات وبين التطور الحي المستتير ، بل تضمن لها هذه الحدود سلامة التطور والرقى النقي السديد . لأن الخطوط العامة كأنها حصون حامية ، تأمل غض البصر ، وعدم إيداء الزينة ، والحسم في العقوبات ، وطهارة اللسان عن الخوض في الأعراض ... إلى آخر الآداب المذكورة ، تجد هذا حين يتأصل في حياة الناس ويصير قيماً ثابتة يفيض على الحياة في هذا الجانب النور الساطع الذي لا خداع فيه ، ولا موارد ، ولا كذب على النفس .

ثم جاء التشبيه الثاني يصف الوجه المقابل لهذا الوجه ، يصف الحياة التي تهمل هذه الحدود وتنطفئ فيها هذه المعالم المشرقة ، وتعيش خارج دائرة التدين .

قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ تَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابُهُ ﴾ (النور: ٣٩) .
حياة الإنسان في دائرة التدين تضيئها مصابيح توقد من ﴿ شَجَرَةٍ مُّبْرَكَةٍ ﴾ لا ينضب معينها ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ يعني هو صفو الصفو وخالص الخالص ، والإنسان في هذا المحيط آمن يعرف طريقه لا يضل ولا يخدع ، ولا تذهب نفسه بدداً إذا ألمت به العواصف النكباء ، وإنما هو حاضر في الحياة بقلبه وعقله وعطائه حتى يمضي على طريقه الواضح المستنير بخطوات واعية مُحْكَمَةٌ .

وفي المقابل ، تأتي ممارسات الحياة الإنسانية المقطوعة عن الوحي فتوصف بأنها سراب ، وضلال ، وخداع ، وأن الروح معها تعيش في غربة منقطعة ، ظامئة إلى ما يروي غلتها ، ولكن العناد والكفر يحرق هذه الروح بظمئها ، والتشبيه يَصَوِّرُ الحالة في صورة سراب يركض من ورائه الإنسان الظامئ ، والسراب هنا هو صالح أعمال الذين كفروا : كالأحسان ، وصلة الأرحام ، ومعونة المحتاج ، وإذا كان هذا سراباً فغيره من أعمال الذين كفروا من باب أولى ، وهذا يعني أن السلوك الإنساني في هذا الجانب الأخلاقي والاجتماعي الحيوي من حياة الإنسان لا بد أن يكون موصولاً بالإيمان بالله ومخافته ، ماضياً على ما شرع الله ، يحل حلاله ، ويحرم حرامه ، وهذا هو النور .

وإذا كانت أعمال الذين كفروا سراباً ، فأعمال الذين آمنوا نور يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، لأنهم حصلوها بنور الشريعة ، وقد قال العلماء : إن نور الذين آمنوا يسعى بين أيديهم وبأيمانهم لأنهم يتسلمون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين ، فالنور هو أعمالهم . ولك أن تتأمل التداخل بين النور الذي

هو نور الله والنور الذي هو أعمال المؤمنين ، ثم تأمل قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وِجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ (الحديد: ٢٨) والمشي هو كل ما تعالجه من شئون الحياة ، يعني الممارسة اليومية بدءاً من حركة الخواطر داخل النفس ، وانتهاءً بكل ما يعالجه الناس ملوكاً وسوقة ، حتى الكلمة تخطها الأنامل على الورق ، فهناك كاتب جعل الله له نوراً يكتب به ، فيكتب الحق والصدق والكلمة الطيبة ، وهناك كاتب لم يجعل الله له نوراً يمشي به لأنه قطع صلته بالله وسقط في الزيف والنفاق والكذب والزور ، خدعه عقله في ذلك أو خدع هو عقله فيه ، وهذا هو السراب الذي إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الحقيقة الغراء التي عاش حياته يروغ منها ﴿ فَوَقَّهٖ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (النور: ٣٩) .

وفي هذا المثل لمح آخر ، هو أن ركض الظامئ وراء السراب في الصحراء الحارقة المتوقدة يصف قصة الحياة المقطوعة عن الله ، ترى الإنسان فيها تائقاً ظامئاً لأن الفطرة في داخله تدعو إلى الله ، ثم هو مخدوع وراء سراب من الأباطيل والفلسفات وخدع العقول وضلال الحكمة ، تحرقه رمضاء هذا كله وهو تائه عن النبع الذي يروى والذي أنبئه الله في قلب أئينا الأول ، وجعلها وصاة في عقبه من بعده : أن أقيموا الدين .

وشيء آخر يلتفت إليه في هذا التشبيه ، وهو أن ذكر الماء والظامئ تكرر في هذا السياق ، يعني وصف الذين كفروا وتوجههم إلى غير الله سبحانه ، وأنهم حينما ينصرفون عن الله الذي له دعوة الحق إلى غير الله ، يكون مثلهم كمن ييسط كفيه إلى الماء ليبليغ فاه وما هو ببالغه ، قال سبحانه في سورة الرعد: ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفِيهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ﴾ (الرعد: ١٤) .

تأمل السورة تجد ظامئاً كالذي في سورة النور ، وهو هناك يجري وراء سراب ببيعة ، وهنا على شاطئ نهر وهذا فارق كبير ، ثم إن مطلوبه هنا - وهو

الماء - بين يديه ، ولكنه لم يُحكَم الوسيلة التي تمكنه من الانتفاع بالماء ، فهو يبسط كفيه : أي يوسع بين أصابعه - كما قال المفسرون - ليبلغ الماء بذلك فاه ، وهذا خطأ لأن الماء يُعترف باليد ، وبسط اليدين إلى الماء إشارة إلى الخطأ في طريقة النظر ومنهج التعقل والتدبر والتذكر الذي أمرنا الله به ، وجعل سداً واستقامته طريقاً إلى الإيمان واليقين .

والصورة المكانية هناك : صحراء قيعة لا حياة فيها ، وإنما فيها ركض وراء الوهم ، والصورة المكانية هنا : شاطئ نهر ، والمثال المذكور : باسط يده إليه .
وصورة السراب الذي يحبسه الظمان ماءً قريبة من صورة جاءت في سورة إبراهيم عليه السلام مثلاً لأعمال الذين كفروا، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ (إبراهيم: ١٨) .
والجامع بين الصورتين هو خلو كل منهما من الماء ، وفي هذه الصورة الرماد المحترق والذي تذهب به الريح في مهابها في يوم عاصف ، وتأمل صياغة الكلام ، تأمل حرف التعدية ﴿اشْتَدَّتْ بِهِ﴾ ولم يقل : اشتدت عليه ، ليؤذن باقتلعه وإثارته وإهاجته ، ثم تأمل إسناد العصف إلى اليوم والأصل أن يسند إلى الريح ، وأحكم دلالة إسناد الحدث إلى زمانه - وهو باب من أبواب المجاز وصفوه بأنه كنز من كنوز البلاغة - الصورة هنا مركزة على الأعمال وتبدها وضياعتها واحتراقها ، وأما صاحب الأعمال فلا وجود له إلا في التعقيب على الصورة في قوله تعالى : ﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ (إبراهيم: ١٨) .
وهو تعقيب حكيم لأن كلمة : ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ فيها محاولة واستنفار أقصى الطاقة لتبلغ القدرة مبلغاً يصل بها إلى اقتناص شيء مما كسب ثم إخلادهم إلى التسليم والعجز ، وهذا وصف خفي للهول الذي لا يحاط به ، وهذا التشبيه الذي يلخص ويكشف حالة الضياع للشيء المرجو نفعه في وقت الحاجة إلى الانتفاع به جاء مغروساً في موضعه من السورة كما يغرس العضو من أعضاء الإنسان في موضعه الذي هو فيه ، بيان ذلك أن هذا التشبيه جاء متمماً لوصف عذاب صاحب العمل وقد وصف القرآن ذلك وصفاً يخلع القلب تأمل :

﴿ وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَمِيٍّ ﴿١٧﴾ وَمِنَ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٨﴾ مِّثْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ ﴿١٩﴾ (إبراهيم: ١٥-١٨) ، تأمل اللغة والصور التي وراء اللغة .
تأمل قوله : ﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ وكيف أسقطت هذه الكلمات صروح الطواغيت في مستنقع الخيبة والضياع ، ثم تأمل هذه الصورة الصارخة : ﴿ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴾ وكيف دلَّ البناء للمجهول على أن هناك سقاة غِلاظًا يعالجون سقيه وهو كاره رافض ، وهم يصبون في فمه ماء الصديد صَبًّا بعد معالجة ، ثم تأمل قوله : ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ ، والمراد أسباب الموت ، ولكن العبارة جعلت الموت جيشاً يقتحم بحشوده ويحيط بهذا البائس التعس ، وقوله : ﴿ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ ، يعني أشباح الموت المخيفة المفزعة قد تزاхمت بها جنبات الأرض من حوله .

هذا تحليل لمساحة لغوية محدودة قبل التشبيه ، وجاء التشبيه امتداداً لخيوط ونسج اللغة والمعاني والأحوال التي وصفها هذا الحيز اللغوي المحدود الذي بيناه ، وبيان الامتداد والاتساق ظاهر ، لأن مقتضى المعقول أن يفكر هذا المُعذَّب الذي يُسقى من ماء صديد في أي أمل يُخرجه مما هو فيه ، ومن الطبيعي أن يذكر صالح أعماله التي تُخَفِّفُ عنه بعض البلوى ، وقد جاء وصف الأعمال بالرماد لِيُبَيِّنَ المدى الذي صارت إليه أعماله من الاحتراق والتبديد والضياع .

ولا يمكن أن يوضع تشبيه سورة النور هنا ، لا يمكن أن يكون الكلام في سورة إبراهيم بعد عرض حالة هذا الذي ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَمِيٍّ ﴾ هو : ﴿ كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ حَسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ﴾ ، وذلك لأمر ظاهر هو أن كل تشبيه إنما هو امتداد للأنسجة اللغوية التي صاغت السياق كله ، وهذا يعني ضرورياً من الأنساق الخفي المكين ، فصاحب الأعمال في سورة

النور حي طليق يركض وراء السراب ، وهذا متلائم مع سياق يحدد للناس ضوابط السلوك في جانب حيوي من جوانب الحياة ، فليس هنا موت ولا عذاب في جهنم ، وإنما هنا حياة فسيحة متسعة ، وفريق من الناس يستضيء بنور الشريعة التي هي كمشكاة فيها مصباح ... إلى آخره ، وفريق آخر انقطع عن نور الشريعة فضلًا في أوهام الفكر وسرايب الضلال ، ولهذا كان وجود صاحب الأعمال في المثل حيًا ، يسعى سعيه ويركض جهده ، أمرًا طبيعيًا .

وفي سورة إبراهيم : ﴿ كَرَّمَادٍ أَشْتَدَّتْ بِهِ الرَّيْحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ (إبراهيم:١٨) بني المثل على العناية بالأعمال وأغفل صاحبها فليس له وجود ، وذلك لأن صاحب الأعمال انقطع عنها بموته وهو بين الزبانية يسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ، فكيف يكون راكضًا وراء السراب !؟

وهذه لمحة سريعة تدل على ما نريده بقولنا : إن التشبيه من حيث لغته ، وصوره ، ولونه ، وطبعه ، امتداد للأحوال الجارية في السورة لأنه جزء منها ، يجري فيه ما يجري فيها ، بل هو جزء من كل له طبع واحد ، وفيه ماء واحد . فلا بد أن تكون العلاقات بمثابة الشرايين الجارية في الجسد ، أو الدم الجاري في الشرايين ، فكما لا يكون الدم الجاري في بعض أجزاء الجسد من فصيلة مخالفة للدم الجاري في البعض الآخر ، كذلك لا تكون الأنسجة اللغوية والصور النفسية والرموز المعنوية الجارية في التشبيه معزولة عن الحركة اللغوية العامة الجارية في السورة كلها أو القصيدة كلها .

ثم تنتقل إلى المثل الثاني في بيان أعمال الذين كفروا في سورة النور وهو قوله سبحانه : ﴿ أَوْ كَظَلَمْتَ فِي نَحْرٍ لُجِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلَمْتَ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ (النور:٤٠) .

وقد جاء هذا المثل رادفًا للمثل الأول : ﴿ كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ ﴾ ، وهو من الباب الذي ينتقل فيه الكلام من تشبيه إلى تشبيه ، وهو قليل من القرآن كثير في

الشعر الجاهلي ، وخاصة في الصور المتسعة المتحركة في أوصاف الناقة أو حمار الوحش أو غير ذلك ، ترى الشاعر يقول بعد الفراغ من تشبيهه : «أقتلك أم وحشية مسبوعة» ، وما يشبه ذلك مما تراه فيه يبدأ في تشبيه آخر ، كذلك الحال في سورة النور جاء المثالن هكذا : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ تَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّيْتَهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤٠﴾ أَوْ كَظَلُمْتَ فِي نَحْرِ لُجِّي ﴿ (النور: ٣٩، ٤٠) .

وكما أننا لم نوف تشبيهات الجاهليين حقها ، كذلك لم نوف تشبيهات القرآن حقها ، يعني لم نجب عن أول الأسئلة وأقربها في هذا الباب وهو : ما مقصود الشاعر من هذا الانتقال ؟ وأي فرق بين الصورتين ؟ وأي معنى في الثاني ليس في الأول ؟ هذه الأسئلة القريبة لم نجب عليها في أي قصيدة في الشعر الجاهلي ، نعم أجاب المفسرون عن بعض هذه الأسئلة في تحليل تشبيهات القرآن ، وقالوا إنه يكون انتقالاً من البليغ إلى الأبلغ ، وهذه إجابة سديدة وإن كانت قائمة على التعميم ، والتشبيه في الحقيقة انتقال من البليغ إلى الأبلغ ، والتعميم في هذا نفسه ، لأننا نريد أن نعرف البليغ والأبلغ معرفة محددة فنقول مثلاً : إن هذا التشبيه الأول كشف عن كذا ، والتشبيه الثاني كشف عن كذا ، وهذا الثاني فيه ما ليس في الأول وهو كذا ، ولهذا كان أبلغ ، وذلك لم يحدث ، كما أننا لم نحل رموز التشبيهات ولمحاتها اللغوية وأنساقها الخفية ، ولندع هذا ولننظر في التشبيه ونقول من غير تواضع : إننا عاجزون عن الوصول إلى حاق القول في هذا الشأن ، وإنما نطمح في أكثر مما نستطيع ، أو نحاول فنخطئ ليحاول غيرنا فيصيب .

وأول ما يبدوك في هذا التشبيه ، أنه قابل الذي قبله مقابلة ظاهرة من حيث العناصر المكوّنة للصورة ، فالذي قبله صحراء مستوية ﴿ قِيَعَةٌ ﴾ يرتفع فيها الآل ، وهذا ﴿ نَحْرِ لُجِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ﴾ (النور: ٤٠) ، هذا في البر وذلك في البحر ، والبر في الأول خراب ليس فيه إلا الصحراء

وأهوالها ، فلا زرع ولا ضرع ولا حياة ، والبحر في الثاني ليس فيه إلا
مكوّنات البحار ، موج فوق موج فوّه سحاب ، والبّر الخرب هناك ليس فيه
إلا الإنسان الظامئ الذي يركض وراء الوهم ، والبحر هنا ظلمات مطبقة
فحسب ، وهذا الفارق مما يتبادر إلى الذهن من غير تأمل .

ثم إن هذا التشبيه الثاني بينه وبين التشبيه الأول : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا
مِصْبَاحٌ ﴾ : المقابلة التي بينه وبين السراب ، ولكنها مقابلة من حيث النور
والظلمة ، فالأول نور على نور ، والثاني ظلمات بعضها فوق بعض ، وشيء
آخر هو تقارب البناء اللغوي في المثليين ، فقد احتشد المثل الأول لبيان وهج
النور ، فذكر مشكاة ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ
دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ ﴾ (النور: ٣٥) ، واحتشد المثل الثاني لتداخل
الظلمات وإطباقها وتكاثفها حاذياً في الصياغة حذو الأول تأمل : ﴿ يَغْشَاهُ
مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ﴾ ثم إن كل صورة من الصورتين لها
مدد يمدّها ولا ينضب ، ففي الأولى : شجرة مباركة يوقد منها ، وفي الثانية :
سحاب مطبق فوق موج من تحته موج في بحر لجي . وكما قال هناك أيضاً :
﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ (النور: ٣٥) . قال هنا : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ
نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ (النور: ٤٠) . وهذه روابط أسلوبية لا تهمل وكأنها ضرب
من التلامح أو التناغي بين المثليين ، وقد ترى هذا التشابه يتجاوز الأمثال إلى
السورة كلها ، فلا تخلو سورة من سور القرآن من هذا الضرب من التناغي
والتقارب في الصيغ والكلمات، ونذكر في هذا المقام بالصيغ المكررة في مثل :
﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ﴾ (النور: ٤) وما بنيت عليه سورة مريم من قوله
تعالى : ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ ﴾ (مريم: ١٦) فقد تكررت مع كل قصة ، وكيف كان
هذا متسقاً مع مطلعها : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾ (مريم: ٢) ... إلى
آخر هذا الباب الحافل بالبلاغة العالية والتي لا تزال هاجعة في أوصال الكلام
الرفيع ، وندع هذا لنقول : إن هذه الروابط الأسلوبية بين المثليين لا يجوز لنا أن

نُهمل إدراكها واستخراجها والإشارة إليها ، وهذا متوقف على ضرب من التدقيق اللازم في القراءة ، ثم إن الوقوف عند إدراكه والإشارة إليه تقصير لا يُحمد ، وذلك لأنه لا بد من تفسير ذلك واستخراج سره ، وهذا لا يتأتى إلا بمزيد من الفقه والاجتهاد وهو مما تختلف فيه الأفهام ، ودلالته هنا أن المثليين من باب واحد يتناولان حقيقة واحدة من جهتيها المتقابلتين : الإيمان والكفر ، فالمشكاة : مثل أعمال المؤمنين الواقعة على الوجه الشرعي ، والظلمات : مثل أعمال الكافرين غير الموصولة بالله ، وهذه الظلمات ، التي فوقها ظلمات ، هي العالم البهيمي الذي تدخله البشرية حين تنقطع صلتها بالله ، وبمقدار ما في عالم الظلمات هذا من وحشة وغدر ، تجد العالم الذي تدخله البشرية آخذة بشرع الله نوراً ساطعاً يجعل كل ما في الحياة إشراقاً ضياءً ، تفيض من كوكب دري ، يُوقد من شجرة مباركة .

وشيء أخير في هذين المثليين ، هو أنهما بمثابة تلخيص وتصوير لمعان جرت في القرآن كثيراً ، تدور حول بيان الكفر والجهل بالظلمات ، والإيمان والوحي بالنور ، فالمؤمنون يُخرجهم إيمانهم من الظلمات إلى النور ، وأصحاب الجبب والطاغوت يُخرجونهم من النور إلى الظلمات ، والرسول صلوات الله وسلامه عليه أرسله ربه داعياً بإذنه وسراجاً منيراً ، وهكذا تجد هاتين الكلمتين في القرآن تدوران حول هذين الأصلين .

وليس في القرآن تشبيه حشد كل هذه الظلمات ، وكل هذه الأمواج ، وكل هذه السحب في صورة واحدة ، إلا هذا التشبيه ، وليس في الشعر الجاهلي صورة تقارب هذه الصورة من حيث كثافة الظلمات والسحب رغم ما في الشعر الجاهلي من روائع في وصف المطر ، بل إن هذه الصورة أشبه بصور الشمال الأوروبي ، ولذلك عَقِبَ عليها مالك بن نبي - رحمه الله - وذكر أنها قاطعة في أن القرآن ليس من كلام محمد صلوات الله وسلامه عليه ، لأن مَنْ عاش في جزيرة العرب لا يستطيع خياله نسج هذا التصوير .

وهذا المثل له رجع وصدى في موضع آخر من السورة الشريفة فقد جاء بعد ذلك بآية واحدة قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ﴾ (النور: ٤٣) ، وهذا من جنس المثل الذي معنا ، تأمل : ﴿ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا ﴾ ، ﴿ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ﴾ (النور: ٤٠) ، وتأمل : ﴿ كَمْشَكُورَةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ أَلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ﴾ (النور: ٣٥) تجد الكلام بُنيَ على حذو واحد وكأنه من عشيرة واحدة ، وقد وجدتُ مثل هذا كثيراً في قصائد الشعر حتى كأن كل قصيدة بُنيّةٍ واحدة متميزة تجري فيها هذه التشابهات في نسج الكلام ، وهذا من أسرار الفن وخفايا الصنعة فيه ، ومرجعه إلى امتداد نسج لغوي واحد في السورة كلها ، وكأن إيقاع الكلمات إنما وقعت وتتابعت على خيوط واحدة ، ولا شك أن آية : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ﴾ (النور: ٤٣) امتداد طبيعي لآية : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي نَحْرِ لُجِّي ﴾ (النور: ٤٠) وكأنه نمو الكائن الحي ، وقد زاد هنا « جبال الثلج » التي لا وجود لها في إرث بيان العربية التي نزل بها القرآن ، وتكلم بها النبي ﷺ وكان هذا حين يتقابل مع « سَرَابٍ بَقِيعَةٍ » مؤذن بجمع أطراف الدنيا من أقصى شمالها ، وربط ذلك بالصحراء التي انفجرت من صخورها ينابيع النور .

وهذه العناصر التي هي الماء والظلمات ، وما يتعلق بها من أمواج وسحاب وورعد وبرق ، جاءت في سورة البقرة تشبيهاً ثانياً متصلاً بتشبيه أول على طريقة ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي نَحْرِ لُجِّي ﴾ .. وذلك مثل الذين اشتروا الضلالة بالهدى قال تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ ﴿ صُمُّ بَكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ ﴿ أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوْعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ ﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ﴾ (البقرة: ١٧-٢٠) التشبيه

الثاني هنا قريب جداً من التشبيه الثاني في سورة النور ، فالظلمات التي في الصَّيِّبِ قريبة من ظلمات البحر اللُّجِّيِّ وإن كانت الصورة في النور قد تواترت فيها الكلمات والجمل لتصوير جبال من الظلمات بعضها فوق بعض ، من غير أن يكون في داخل هذه الظلمات إنسان يعالج كروبها ، والصورة في البقرة تنوعت عناصرها ، فهناك : الصَّيِّبِ وَالظُّلُمَاتِ وَالرَّعْدِ وَالْبَرْقِ ، وفي داخل هذا كله إنسان مكروب يعاني هذه الأهوال ، بل إنه هو قُطْبُ الرَّحَى في الصورة ، والمنوال الذي نُسجت عليه الصورة بكل عناصرها وخواتمها ورموزها ، ويقول المفسرون في تفسير : ﴿ أَوْ كَصَيْبٍ ﴾ إن التقدير : أو كذوي صَيْبٍ ، لأنَّ المُشَبَّه به هو الإنسان الذي هذا حاله كما جاء في التشبيه الأول : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ (البقرة: ١٧) .

تأمل كلمات تشبيه سورة البقرة : « يجعلون .. أصابعهم .. آذانهم .. أبصارهم .. لهم .. مشوا .. عليهم .. قاموا .. سمعهم » .. تجد الضمير العائد على الجماعة الإنسانية الضالة منبثاً في الكلام كله ، والأحداث والأحوال منسوجة عليه ، وليس الأمر كذلك في سورة النور ، لأن المثل هنا : مثل الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، والمثل هناك : أعمال الذين كفروا .

والتشبيه السابق في سورة البقرة : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ (البقرة: ١٧) .. ليس فيه ماء ولا سحاب ، وإنما عقد المثل على صورة رجل يبحث عن الضوء ويكدح ، تأمل كلمة ﴿ اسْتَوْقَدَ ﴾ فلما أمكنه أن يستخرج ما يُضيء به ذهب يد الله التي لا تُغالب بهذا الضوء وأطبقت الظلمات حول هذا المخدول .

وهذا المثل هو المقابل للسراب ﴿ مَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ﴾ (النور: ٣٩) في سورة النور ، والفرق هو أن المثل هنا يدور حول الإنسان ، والمثل هناك يدور حول السراب .

ويلاحظ أن هناك إيماضات من النور في أمثال سورة البقرة ، نجد هذا في قوله : ﴿ فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ﴾ (البقرة: ١٧) ، وفي قوله سبحانه : ﴿ كَلَّمَآ أَضَاءَ لَهُمْ مَشْوًا فِيهِ ﴾ (البقرة: ٢٠) ليس شيء من هذا في سورة النور ، وهذه الإشارات دالة على أن الذين اشتروا الضلالة بالهدى أدركوا الهدى وأضياء لهم ، ولكنهم ابتاعوا الضلالة وآثروها ، وقد ذكر المفسرون أن «الاشتراء» هنا مجاز عن الاختيار ، والاختيار لا يأتي إلا بالمعرفة ، فالذين اختاروا الضلالة وآثروها على الهدى لا شك أنهم عرفوا الهدى وإلا فلا يصح أن يكون اختياراً ، والهدى الذي أدركوه كان إيماضاً سرعان ما يغوص في أعماق ظلمات الضلال والعناد .

والمثل الثاني في سورة البقرة أبلغ من المثل الأول - كما قال الزمخشري - ولا حَرَجَ علينا حين نقول : إن في القرآن بليغ ، وأبلغ لأن البليغ قد بلغ حد الإعجاز ، وإن كان البعض يرى أن الاختلاف في ظهور البلاغة يعني أنها في بعض الآيات أظهر منها في البعض الآخر ، أما البلاغة فهي في الكل على حد واحد لا تفاوت فيها ، وفي المسألة كلام آخر ، والمهم أننا نرى في المثل الثاني مزيداً من التنوع والغزارة في العناصر والأحداث والمخاوف والأهوال ، وترى المثل بهذا أفسح مدى من المثل الأول .

تأمل المحيط الذي تتحرك فيه الأحداث ، تجد الصيِّب والظُّلمات والرعد والبرق وخطف الأبصار ، ثم تأمل الإشارات اللغوية ذات الدلالات المتسعة على الأحوال النفسية ، تأمل : ﴿ تَجْعَلُونَ أَصْبِعُكُمْ ﴾ (البقرة: ١٩) والأصل : أناملهم ، وقد دلَّ هذا على أن القوم انخلعت قلوبهم وطاشت من هول المخافة ، لأنهم صاروا في فم الموت ، ثم تأمل كلمة «الخطف» وما فيها من حدة وشراسة وقسوة ، وتأمل : ﴿ كَلَّمَآ أَضَاءَ لَهُمْ مَشْوًا فِيهِ ﴾ (البقرة: ٢٠) وكيف كانوا قائمين وهم خائفون يترصدون شعاعاً من الضوء ليفلتوا من هول الهلاك ... وهكذا .

أما المثل الأول : فليس فيه إلا المستوقد وحالته المخدولة ، من حيث تراه يكدح حتى يستخرج ناراً ، أي نار ، تقطع هذه الوحشة المطبقة على النفس ، حتى إذا أضاءت ما حوله وآتاه الهدى ضربه الخذلان ، وذهب الله بهذا النور ، وبقي مغروساً في جوف الظلمات ، وهنا إشارة لمآحة في إسناد الذهاب بالنور إلى الله الرحيم الرحمن ، هذه الإشارة هي فيض الخذلان الذي أصابه وما آل إليه من ضلال وفساد وجفوة . حتى إن الله سبحانه ، الذي وسع كل شيء رحمةً وعِلماً ، يذهب بنورهم ويتركهم في ظلمات لا يبصرون .

وهكذا نجد الأمثال تتقارب وتتوَّع وتتنوع وتختلف .

والمثل الثاني في سورة النور : ﴿ كَظَلَمْتَ فِي نَحْرِي لَيْتِي ﴾ ... إلى آخره تصوير لأعمال الفجور والفسوق والغدر وما هو من هذا الباب ، وليس في المثل ما يدل على أن لهم فيها مطعماً في الآخرة ، بخلاف السراب ، فإنه نوع من الأمل وإن كان وهمماً ، ولهذا قلنا : إنه مثل لأعمال البر كصلة القربى والإحسان .

وهذا سر اختلاف المثليين فيما نرى ، وكذلك اختلف المثالان في سورة البقرة وقد ضربَ لجماعة واحدة هم الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، ويبدو أن المثل الأول تصوير لضلالة أهل الضلالة حين لا يخوضون صراعاً مع الحق وأهله ، يعني هو تصويرٌ لضلالهم في أنفسهم من غير أن تحتشد هذه النفوس لمواجهة الحق ، والمثل الثاني ؛ تصوير لضلالتهم وقد خاضوا لمواجهة مع أهل الحق ، وهذه الحركة وتلك الأحداث وهذا الصراع القائم بينهم وبين الطبيعة « الصَّيْب ، والظلمات ، والرعد ، والبرق الذي يخطف أبصارهم » رمز لهذا الصراع الذي يخوضونه مع أهل الحق ، ولا تجد شيئاً من هذا في المثل الأول ، وإنما تجد رجلاً يستوقد ناراً ثم تنطفئ ويبقى في ظلماته ، من غير أن يكون حوله رعد وبرق يخطف أبصاره ، ومن غير أن ينخلع قلبه من هول المخافة فيضع أصابعه في أذنه ... وهكذا .

وأذكرُ بما قلته من أننا نحاول فنخطئ ليحاول غيرنا فيصيب ، وأرجو أن
يغفر الله لنا بهذا القصد ما يقع فيه من فساد الرأي ، وإنما غايتنا أن نحرك
العقول نحو هذا الباب الزاخر بالبلاغة العالية والتي لا تزال في أكمامها .
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله ومن يتبعهم بإحسان .

* * *